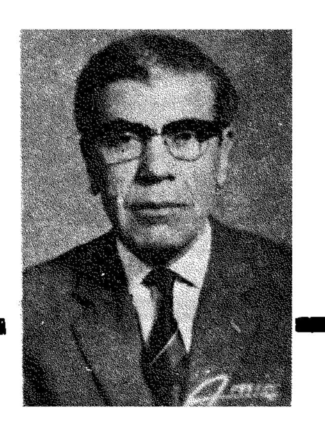


د. حسين مروّة

قراءة موضوعية ـ ذاتية !

قراءة ربع قرن من رحلة « الآداب » ، تعني قراءة مرحلة من حياتنا نحن الذين عشنا مع « الآداب » زمن ميلادها ، فزمن سيرورتها،ثم زمن عيدها الفضي العتيد.. فكيف نقرأ هذه المرحلة ؟ .

ابموضوعية خالصة باردة نقرؤها ؟.

ام بمشاعرنا الذاتية صرفا نفتح عليها ابواب الذاكرة؟

ان علاقة المرحلة كلها بحياتنا تحكم شكل العلاقة بيننا وبين « الآداب » نفسها . نحن اذن في قبضة هذه العلاقة . فليس بالارادة نستطيع ان نحدد كيف نقرأ ربع قرن مضى من رحلة « الآداب » ، اي كيف نقرأ ربع قرن مضى من حياتنا ..

الموضوعية الخالصة الباردة ، محكومة بحرارة هذه العلاقة،اي بمشاعر ذاتية لا يمكن شدّ الحبل على خناقها باسم الموضوعية .. لكن ، لا يمكن ـ ايضا ـ قطع هذا الحبل ، كيلا تبقى المشاعر الذاتية وحدها هي الحاكمة المستقلة . بقرارها دون ضابط .. والضابط هنا هو موضوعية ترى الواقع بحجمه ووزنه ولونه وعلاقاته الحقيقية .

ليس من تناقض آن تلتقي الموضوعية والذاتية على صعيد العلاقة بين «شبكية» الرؤية الفكرية لدى الانسان، التي بها يتعرف وجوه الكائنات وحقائقها ، وبين «شبكية» العين الداخلية لديه ، التي بها تتحول معرفته تلك الى

خصوصيتها الفردية ، اي الى مشاعر ذاتية ، اي الى مواقف ،والمواقف الى شكل من الانحياز .. فالموضوعية دون موقف لا وجود لها الا تجريدا محضا .. والموقف دون انحياز لا وجود له الا وهما او ايهاما ..

لا نقرأ بموضوعية باردة .. انما نقرأ بموضوعية حية ، اي حارة .. اي بموضوعية ـ ذاتية ، أي بموقف محدد يعني انحيازا محدّدا ..

بهذا النمط من الموضوعية ، بهذا المفهوم الحي للموضوعية ، أقرأ ربع قرن « الآداب » : اقرؤه تاريخا في اطار الزمن الخارجي ، وتاريخا في اطار الزمن الداخلي، ولا فاصل بين هذا وذاك ، فانما هما معا « تاريخية » سيرورة واحدة ..

زمن ميلادها هو زمن الميلاد الجديد لحركة التحرر الوطني العربية ، بعد الاحباط الحياتي « التاريخي » عام ١٩٤٨ !

من هذا الباب « الزمني » ندخل في القراءة . صحيح ان سندخل من هذا الباب الى غابة كبيرة فيها الشجر الاخضر والعاري وفيها الشجر الواقف والمائل .. لكنه الباب الذي لا بد من عبوره لرؤية الغابة ، ولا بد من رؤية الغابة لتمييز الشجر الاخضر من العاري وتمييز الشجر الواقف من المائل ..!

زمن ميلادها رافق زمن المنعطف المرحلي لمسيرة الثورة العربية .. من هنا نقرأ الحروف الكبرى التي رسمت لـ « الآداب » معنى آن تكون في ذلك الزمن بعينه ، اي أن تنغرس في مكان الشجر الاخضر من الغابة الكبيرة، وان تبقى في صفوف الشجر الواقف دون المائل ..

ربع قرن كتبته « الآداب » التزاما بمضمون هـذا « التزامن » بين مولدها ومنعطف الحركة التحررية العربية غداة الخمسينات .. منذ البدء كان التزامها انحيازا الى المسار التاريخي لريح التحرر الوطني على صعيد الفكر والفن والادب . فالتحرر الوطني هو – بحقيقته الكاملة في عصرنا – مدخل الى التحرر بمعناه الاشمل والاعمق . وقد استوعبت « الآداب » مضمون المرحلة ، وعلاقات هذا المضمون بحركة الفكر والفن والادب، فوضعت سيرورتها تعبيرا عن سيرورة فكر المرحلة وفنها وادبها ، وجعلت من « ذاكرتها » الشهرية « ذاكرة » لتفاصيل العملية الابداعية العربية : الفكرية والفنية والادبية ، ولتفاصيل العلاقة بينها وبين العملية الابداعية الخارجية .

***

هكذا ذهب مسار « الآداب » في مداره من حركة التحرر الوطني العربية ، يرصد فعل الحركة هذه في المدى الاوسع لمختلف حقول التشكيل الادبي والفكري على الخارطة العربية بوسعها الكامل ، كما يرصد فعل النتاج الادبي والفكري في هذه الحركة على خارطة المجتمع العربي بوسعها الكامل .

ان هذا الرصد الجامع الشاسع هو بذاته قيمة بنائية ، من حيث كونه يؤسس لبناء دراسات وبحوث ميدانية عن مرحلة كاملة لحركة الفكر والادب في اطار حركة التحرر الوطني العربية . غير أن هناك من يرى هذا السجل المفتوح دون حدود لكل ما انتجته المرحلة من فكر وادب ، رغم السمة التناقضية للنتاجات المرصودة ، ملمحا من النزعة « الليبرالية » .. وهناك من يرى في ذلك – من جهة اخرى – منزعا « انتقائيا ».. لكن كلتا هاتين الملحوظتين تتطرف في تجاوز المضمون الواقعي للمرحلة التي تعنيها ، وتتطرف اذن في اضفاء مفهوم على النتاج الفكري والادبي للمرحلة ذاتها ليس هو المفهوم الحقيقي والتاريخي لهذا النتاج . ان الطابع الليبرالي والطابع الانتقائي كليهما ،ليسا غريبين عن الطابع العام للمرحلة ، ولا عن الطابع العام لنتاجها في الفكر والادب. لذا كان فضل « الآداب » انها تفردت ، تقريبا ، بكونها هذا السجل المفتوح بالذات وهو الذي يتأسس معناه الايجابي على كونه القيمة الوثائقية النادرة ، في عالم المجلات العربية ، لدراسة ابرز الظاهرات الشعرية والقصصية والنقدية في الوطن العربي بكامله خلال مرحلة تاريخية بكاملها .

***

من منطلق « الموضوعية – الذاتية » نفسها التي اقرأ في ضوئها عيد « الآداب » الفضي ، اراني اقرأ في الوقت نفسه ، منذ اللحظة ، لمحات من عيدها الذهبي ... الآتي .